بحوث فى الأدب الفرنسى الحديث

تطور الحركة الأدبية

فى فرنسا الحديثة

لأستاذ الأدب فى جامعة السربون « دانيال مورنى » Daniel Mornet

بقلم الأستاذ خليل هنداوى

القصة الواقعية « Le Roman Naturaliste »

اميل زولا

أصول مذهبه :

يتولد أدب زولا من ارادة قانونية ومن طبع لا يتلاءم مع هذه الارادة . أما هذا النظام فهو يعود إلى تأثير « بالزاك » فيه و« فلوبير » وفلسفة « تين » والواقعيون هم الذين قالوا بأن القصة لا ينبغى أن تكون رومانتيكية ابداعية لأنها ليست وليدة خيال أو وهم ، وإنما يجب أن تكون محاكاة حقيقية للحقيقة ، ولكن زولا بما أوتى من الخصب وبما أفاد من مطالعة المتأخرين وجد أن هنالك مذهباً أجدر بالأخذ ، يجب أن تخلق القصة المبنية على الامحان الذى يصل إلى عرفان حقائق علمية . وقد آلت بزولا مطالعته للدراسات النفسية التى نشأت فى جيله كنظرية ولادة العواطف ونظرية الوراثة الطبيعية فلسفياً وفسيولوجياً إلى أن يرى أن الطبائع فى الرواية المدرسية انما كانت عقداً بسيطة ، على أن كل مافى الانسان وكل ما فى القصة يخضع للجبلة الطبيعية أو للطبع . وهذا الطبع انما هو وليد الوراثة ووليد تأثير الاوساط والظروف ، فواجب القصة اذن ألا تقف بحثها على دراسة حالات نفسية ما هى إلا كلمات مصفوفة ، وانما على حالات واقعية . فتأنيب الضمير مثلا ما هو إلا اضطراب بسيط عضوى ، « وانما غايتى أن أكون كاتباً واقعياً وطبيعياً ، ولكن القصة الامتحانية يجب أن يكون لها هدف أبعد ، انها ستكون درساً . فقد يجلس القصصى وتحمله ملاحظته وتأملاته إلى حالة من حالات كل يوم ، فيرى مثلا حالة جنون التصوف أو هلاك المدمنين للكحول ، أحل بهم هذا عن مصادفة ، أم نتيجة شريعة معلومة ؟ اذا أردنا أن نعرف ذلك فلنقم أشخاصنا وأنفسنا مقام من تخيلهم فكرنا المؤلف على الطريقة الامتحانية ، ولنتأمل مجرى هذه الاشياء ، فاذا وصلنا فى النهاية الى النتيجة التى أدركناها بالتأمل الاول كان لنا أن النتائج الواحدة تتبع الاسباب الواحدة ، وهكذا أوجدنا قانوناً ، وعملنا علماً !

على ان أهواء « الرومانتيكيين » لم تكن أبسط ولا أسهل من هذه البحوث العنيفة التى يشبهها زولا بحقائق علمية يختلقها رجل الأدب كما يشاء هواه لكى يصل إلى النتائج التى تلائم فكرته وغايته . وأحكام زولا العلمية لم تكن أكثر جداً من بحوثه .

وقد وضع زولا قصصه سائراً على طريقته بصبر وجلد ، لا يعرف الملل ، وقد عمل على الذهاب من المبدأ إلى النتائج ، فبعض أشخاصه تؤثر فيهم عوامل الوراثة ، وبعضهم لا يستطيعون فراراً من تأثير الاوساط والظروف ، وبهذا لم تظهر الفضيلة عنده كمثل مستقل وانما الفضيلة تحتاج إلى الوراثة وإلى تأثير الاوساط والظروف كما هو الحال فى الرذيلة التى تنشأ بهذا التأثير .

طبع المؤلف وعبقريته

لقد كان طبع زولا أشد وأقوى من تعاليمه الفلسفية ، وقد كانت آثاره الأولى تفيض عاطفة ورقة . لقد كان كاتباً رومانتيكياً ! وهو لا يجهل ذلك فى نفسه . فلقد أخذ عهداً على نفسه بأن يكون واقعياً وطبيعياً ، وطلب الى القصصى أن يكون ذا عاطفة ، تموج فى صدره كل العواطف حيث لا تغنيه عاطفة التأمل والتحليل وحدها . ولقد كانت تموج فى صدر زولا العواطف على اختلافها : العواطف الاجتماعية ، والعواطف النبيلة . ولقد كان جمهوريا ثم صار اجتماعياً فاشتراكياً . وله هذه الجملة المأثورة « الجمهورية ستكون واقعية أو لن تكون » . فكان من وراء ذلك ان رأى فى الاغنياء والاسياد والمثرين رجالا لؤماء وأرواحاً قاسية وعقولا منحطة ، ولا ينزل النبل والشرف والحقيقة الا منازل رجال الشعب والفنانين والمفكرين المؤمنين بالجمهورية الواقعية . وفى استطاعتنا أن نناقش هذه الافكار ولكنها بجملتها تصل بنا الى بعض الأنانيه والحمق ، والى الاشفاق على البؤس والبؤساء .

ان الصورة التى صورها ـ زولا ـ الانسانية صورة مظلمة الالوان ، تحمل فى طياتها اليأس والوجوم ، تتلخص هذه الصورة فى أنها مجموعة مظلمة للعيوب والخبث والرياء ، وجهود دائبة تبعث

على الأشفاق تذهب مذهب العنف فى قتال الفاقة الروحية والجسدية ؛ على أن زولا برغم ذلك كله يعتقد أن هذا النضال شريف وعظيم ، يبشر بمستقبل خير من الحاضر ويعلن أن الحياة الحرة المخصبة هى التى ستظفر وتنتصر . وتراه قبل كتابة « أناجيله العاطفية » كان يعتقد بجمال الحياة ، هذا الجمال الذى هو عنوان قصة له ، إن جمال الحياة سينتصر على كل شناعة فيها ، وسيغلب على كل مناسك وشعائر لا تبعث الا على الزهد والفرار من الحياة . وسيقهر المذاهب المسممة . الحياة وحدها ستكون جميلة لأنها ستكون صادقة مبدعة . وهكذا تجد زولا يتشاءم ويطغى عليه تشاؤمه . ولكن تشاؤمه تلوح خلاله لمعات الرجاء ، ويمشى فيه شعاع التفاؤل

ولزولا مخيلة قوية وثابة . ان الشىء الذى يحبه حباً جماً هو مشهد الحياة . يحب الشناعة فيها والرذيلة والفساد أيضاً ، أليس هو مشهدا من مشاهدها ؟ وان مشهد الحياة يحمل بنفسه حيث يبدو مجموعة صور تتجلى فيها لجبة الحياة ، وفى الحق لا تظهر عبقرية زولا الا فى هذه القدرة على التخيل . وان هوجو وفلوبير قد وصفا الجماعات فى حركتها ، وفى عراكها وصراعها ، ولكنه وصف ينشأ حول أبطال القصة ولا يدخل فى أنفسهم . أما زولا فقد بدّل هذا النظام ، وترك الحياة المضطربة المبهمة تسود جو القصة كلها . فهنالك صور كبيرة تهيمن على الجماهير ، وهنالك كائنات سرية عظيمة كأنها تحيا باضطراب الجماعات ، وان عالماً ضخماً واسع الحدود ، ذا لجب وصخب ، مبهم التفسير ، يفتش ويتحرى ويجد تأويل نفسه فى هذا الرمز يبدو ـ طوراً ـ كصورة عنه ، وتارة كوهم باطل !

وقام لزولا متممون لمدرسته ، أخذوا بمبادئه الأدبية وهجروا مبادئه الفلسفية ، فلم يشاءوا أن يجعلوا تاريخ البشرية مقيداً بتاريخ الوراثة والأدواء العصبية ، ولم يعتقدوا بأن القصة انما تكون تجربة فسيولوجية اجتماعية . . . فعادوا إلى المصادر التى صدر عنها زولا ، وإلى الواقعية التى اقتبسها من فلوبير وكونكور ، ورأوا أن كل مافيه اختلاق هو افتراء ، ورأوا ألزم شىء التحدث عن شىء لاحظناه ، ولو أن الحياة قدمت لنا مشاهد نادرة الوقوع فمن الواجب أن نهملها لأنها افتراء ! مادة الرواية هى مادة كل يوم ، هى مادة كل شىء لا ابتداء له ولا انتهاء ، مادة كل ما يمكن وقوعه كل يوم فى كل كون ، والحياة التى تتمثل لنا كل يوم وفى كل كون هى حياة فيها القبيح والشنيع ، أما الجمال والفضيلة فهما صفتان نادرتان ، أو قل هما مستحيلان ، وهما مما لا يصح اتخاذه موضوعا للقصة ، القصة تعرض الشناعة والرياء الضعيف الممتثل فى مجتمع بنيت أسسه على رذائل مشتهرة وأنانية متبجحة . وانما قيمة القصة وحسنها يتوقفان على مقدار صدقها فى وصف هذه الشناعة والرياء

هذه مبادىء جهد بها هؤلاء ولكنهم لم يكونوا أمناء لمبادئهم ، فقد كانت فضيلتهم زاهية مختالة ، قتلوا كبرياء وخلقوا كبرياء ، وكرروا موضوع « كتلة الشحم » تحت مظاهر متحدة الغرض ، وكل رواياتهم تعود إلى وصف فئة تتظاهر بنصر الفضيلة ، تمدح جماعة سافلة اذا افتقرت اليها ، وتعود إلى إهانتها إذا فرغت منها . ولهذا لم يبق من « الواقعية » إلا مبادىء عامة قد تتلاقى بالمذهب « المثالى » حيث تكتب القصة بأسناد وأدلة ، والروائى لا يحيا إلا فى العالم الباطن ، عالم نفسه ، وإنه ليخرج منه ليلتقط من الحياة اليومية ألف مشهد ، ويتحرى فى هذه المشاهد عن الغرائز والأهواء التى تمثل هذه القصة . الحياة الحقيقية ليست هى حياة صفوة مختارة ، وقد تكون هذه الحياة كاذبة مرائية ، إن الحياة فى حياة المجموع ، حياة الشعب الصادقة ، والفن يكون فى تصوير هذه الحياة الشعبية

جى دى موپاسان

جمال الحياة ومذهبه الواقعى :

عاش موپاسان للحياة ولجميع لذائذ الحياة . لقد كان فتى « نورمانديا » له مظهر يملأ العين ونفس لا تعرف الكلال . كان يهيم شغفاً بالطبيعة وجمالها وهو القائل « إنى أحب السماء كعصفور ، والغابات كذئب شرس ، والصخور كوعل . أحب حباً وحشياً عميقاً قدسياً وحقيراً ـ كل شىء يحيا » . ولقد كان له فى فنونه حواس لا للتمتع فحسب ، بل للملاحظة ، وقد كان الصديق المقرب الوفى للكاتب « فلوبير » إذا هم بأن يكتب قيد بانتباه ودقة لا كل ما شاهده ، بل كل ما يقدر أن يشاهده . ولقد أعطى صوراً كثيرة قوية عن مناظر السين والمارن ومقاطعة نورمانديا وعن حياة القرويين وطلاب الجامعات . وفى قصصه الأولى سخر من معايب نفسه ومخازيها ، وسخر من كل ما يراه كاذبا فى المجتمع فى الأديان والشرائع والعادات .

لقد كان ماجنا مرحا ولكن لم يطل عهد مجونه ومرحه . فقد تألم وغزا الألم جسمه ونفسه فبدل كل نظراته الواهمة فى الحياة

لقد كان مسرفا جد الاسراف فى التمتع بالحياة ، وقد اساء لنفسه وجسده بهذا الاسراف ، إسراف عنيف فى لذته وصناعته كأنما كان طبيعة شاذة عنيفة فى ميولها ! فبكرت إليه الأوصاب وتناوشت جسمه العلل ، فأراد أن يقاوم سلطانها فعكف على الخمر والمورفين والمخدرات ومالبث قليلا حتى أثر ذلك فى نفسه فولد فيها الاضطراب فتبدلت ألوان الحياة فى وجهه ، واستحال نورها ظلمة حالكة ، وأخذت هذه الروح المرحة تشك فى فرح الحياة وبدأت تحقر معانيها ، وآزره على ذلك عقول أوى إليها كان تفكيرها متجهما ، فهو يحب شوبنهاور ممن وجدوا الحياة صفحة سوداء . ومنذ ذلك الحين غدا كل شىء فى عينه زهوا باطلا وجنونا وعدما : « سعداء هم أولئك الذين لا يصرون بسأم كبير : لا شىء يتبدل ، ولا شىء يتحول ، وأن كل شىء يغمره سأم طويل . . فكرة الانسان ساكنة لا تتحرك وإنما تدور ضمن حدودها المتقاربة كذبابة فى قارورة مسدودة ، وهذا الضجر الذى عراه يظهر على صور مختلفة فى ثنايا مواضيعه وروايا ته ؛ على أنه لم يجعل من هذه الانسانية الكئيبة المحزنة صورة فتانة ، وهو اذا لم يجل هذه الصورة بوجه صحيح فانه كان مفعماً شفقة وحناناً عليها ، فهو فى المواطن التى تهتز فيها الغرائز وتملك على المشاعر يبصر فضائل خفية وجمالا متوارياً ونزوعاً عنيفاً متألماً نحو المثل الأعلى ، تراه يعود إلى حديث من أحاديث الحياة حيثما كان مصدره ، تسكب عليه الحنان والرقة ، ويسبغ عليه الجمال ؛ على أن فوزه الأدبى والثروة التى نالها قد بدلاه وأثرا فى نفسه ، فقد كان يغشى الأوساط الارستقراطية ويتمتع بما تخلقه هذه الاوساط من الفنون والمرح العنيف فى الحياة ، فلم يعد يقنع بطريقته وفنه الأول فى وصف الأشياء البسيطة وتصوير الحوادث القريبة . إنه نشط إلى ماتدعوه طبيعته الصافية إلى تحليل نفوس مركبة يستحوذ عليها القلق ويهديها الشقاء ، ومن جملة هذه الأنفس نفسه . كتب قصة « قوى كالموت » و « قلبنا » و « بطرس » و « حنا » وما هى قصص تحليلية . هو يريد فيها أن يخفى التحليل بدلا من نشره . وأشخاصها يريدون أن يخدعوا الناس عن أسرار نفوسهم بهذه الفصول والحركات التى يأتون بها . وأكثر قصصه تجرى على طريقته . القصة الشخصية التى تدور حوادثها حول بطل هو صاحب القصة ، تجرى على طريقة الاعترافات التى تعبر عن الحياة الباطنة والتحليل الخلق .

على أن موپاسان كانت جهوده بارزة فى تطور المدرسة الواقعية وهو فى خير قصصه تبدو واقعيته فى ذوق حاد مشبوب يسمو إلى فتنة الحياة الشعبية وهجو الحياة الاجتماعية هجواً لافظاظة فيه ولا مرارة فى انتقاء هذه الحقائق التى تمثل الحقيقة الاكثر ارتباكاً فى الحياة . كل شىء فى أسلوبه يدل على صرامة واتزان . ولا يمل « موپاسان » من قول كل شىء ، ولكن من قول كل مايوحى إليه عقله بقوة وبيان . وقد تفتنه الطبيعة وتأسره وتؤثر فيه ، ولكن القصة تخون نفسه ، وأخيراً تراه لا يتردد فى التحرى عن الحقيقة الانسانية التى تعكس فى لحظة واحدة من هذه الحياة المتغيرة العابرة شيئاً من حقيقة النفس الخالدة للناس .

« يتلوه بحث تأثير العلم فى الرواية »

خليل هنداوى .

نظرات

تاريخية دستورية

بقلم حسن صادق

بحث تحليلى فى الدساتير الحديثة بين يقظة الشعوب وحرصها على حقوقها وكيف تغلبت على المحن السياسية وأقامت سيادتها على أمتن الأسس

وهو درس ممتع فى التربية الدستورية يطرب لمادته وأسلوبه عقل كل قارئ وشعوره

ثمنه ١٠ ويطلب من المكتبة التجارية الكبرى

ومن المؤلف بوسته الزيتون ضواحى القاهرة